

قازان: مدينة الألف عام

د. محمد السعيد جمال الدين *

يعرض هذا المقال لتجربة علمية حية تيسر لي خوضها منذ ربيع سنة 1997 حين جاعنا بمقر جامعة عين شمس بالقاهرة رسول من قبل السيد كامل إسحاقوف عمدة مدينة قازان، عاصمة جمهورية تتارستان، إحدى جمهوريات الاتحاد الروسي، وهي المدينة التي تبعد عن العاصمة الروسية موسكو نحو سبعمائة كيلو مترًا، يطلب إلينا أن نعد بحثًا عن تاريخ المدينة: كيف نشأت وكيف تطورت؛ فإن كل الشواهد والآثار التي لا زالت قائمة في المدينة تدل على أنها قد أنشئت منذ عهد دولة "البلغار" التي عاشت في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي أي منذ أكثر من ألف عام، لكن المصادر والكتب التي تشير إلى نشأة المدينة ليست متوفرة في قازان ولا في مكتبات لندن وباريس وبرلين التي أرسلت إليها وفود من تتارستان للبحث في مكتباتها، فلم تجد تلك الوفود من الشواهد إلا ما يدل على أن المدينة كانت قائمة في القرن الثالث عشر الميلادي، أما ما قبل ذلك التاريخ فلا يتيسر العثور على المصادر التي تشير إليه إلا في المكتبات العربية أو الفارسية أو التركية.

وجمهورية تتارستان تحتل الآن المنطقة التي عاشت فيها دولة البلغار القديمة، في منطقة النهر الأوسط لحوض نهر الفولجا في أوروبا الشرقية، وهي الدولة التي تكونت من قبائل من الأتراك والأويغور الذين هاجروا من مناطق مختلفة في آسيا في القرنين الثالث والرابع واختلطوا بالسكان المحليين الذين ينحدرون من القبائل الفنلندية.

وقد اعتنق أهلها الإسلام في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري (الثامن والتاسع الميلادي) على مذهب الإمام أبي حنيفة. وفي سنة 309 هـ (921م) أرسل ملك البلغار إلى الخليفة المقتدر العباسي في بغداد رسالة يطلب إليه فيها أن يرسل إليه من يفقه في الدين وأن يبني له مسجدًا كما يبني حصنًا يتحصن فيه من الملوك المخالفين، فأرسل المقتدر بعثة كان من بين أعضائها فقيه يدعى "أحمد بن فضلان" كتب تقريراً وافياً عن المهمة التي كلفت بها البعثة، ويتضمن التقرير فيما يتضمن من معلومات بالغة الأهمية والندرة وصفاً دقيقاً لبلاد البلغار وأحوالها وعلاقتها بجيرانها، وبخاصة الروس ويهود الخزر، ولا زال هذا التقرير الذي يُعرف باسم "رسالة بن فضلان" هو المصدر الوحيد حتى الآن الذي يشتمل على أوثق المعلومات عن تاريخ البلغار في تلك الحقبة، وكذلك عن الروس ويهود الخزر وغيرهم من الشعوب والقبائل التي كانت على علاقة بدولة البلغار.

* أستاذ الأدب الفارسي بكلية الآداب - جامعة عين شمس

وقد واصلت دولة البلغار نموها وتقدمها حتى اجتاحتها دولة "القبيلة الذهبية" المغولية في سنة 1236 التي تحولت فيما بعد إلى مجموعة من الإمارات اتخذت إحداهما من "قازان" عاصمة لها فنسبت إليها وسميت باسم "خانية قازان" التي استمرت فيها تقاليد دولة البلغار قومياً ولغوياً وثقافياً. وظلت تلك الإمارة هدفاً لغزوات الروس حتى استولى الإمبراطور الروسي إيفان الرابع الملقب بالرهيب على قازان سنة 1552 فدمرها وشرّد أهلها، فهجّرها معظمهم إلى مناطق أخرى في أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى وظل الباقون يزرحون تحت نير حكم القياصرة الروس حتى العصر الحديث.

ويرجع السبب في إطلاق اسم التتار على هذا الشعب إلى أن الروس قد سموا كل الشعوب والقبائل التي اعتنقت الإسلام ودخلت ضمن الأراضي التي سيطرت عليها دولة القبيلة الذهبية في القرن الثالث عشر باسم التتار، حتى ولو لم يكونوا ينتمون إلى أصول مغولية (تترية)، فغلب اسم التتار - في المصادر الروسية - على كثير من القوميات التركية وغيرها من القوميات التي تعيش على الحدود الجنوبية للدولة الروسية.

ويمثّل نجاح الثورة البلشفية في روسيا سنة 1918 بداية تكوين دولة تتارية مشتركة ذات حكم ذاتي في نطاق الاتحاد السوفيتي تقع في المنطقة نفسها التي احتلتها دولة البلغار القديمة عند المجرى الأوسط لحوض نهر الفولجا. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وفي سنة 1992 سميت هذه الدولة رسمياً بجمهورية تتارستان، وهي دولة ديمقراطية ذات سيادة، ترتبط بروسيا الاتحادية، ولغتها الرسمية هي التترية (إحدى اللغات التركية) وكذلك الروسية، ويبلغ عدد سكانها 3,8 مليون نسمة، وهم ينتمون إلى قوميات مختلفة لكن أكثرهم من التتاريين اللذين تبلغ نسبتهم حسب إحصاء 1994 (52%) ثم الروس (41.5%). وقد أدت عمليات التهجير القسرية إلى نزوح عدد كبير من التتاريين عن بلادهم وإقامتهم في أنحاء مختلفة من الاتحاد السوفيتي السابق⁽¹⁾، وكان هذا هو السبب الرئيسي في تناقص عدد السكان الأصليين في وطنهم التاريخي. أما قازان العاصمة فهي تعد أكبر مدن تتارستان من حيث عدد السكان والذي يبلغ 1.2 مليون نسمة.

وكانت إدارة مدينة قازان - بعد أن نالت جمهورية تتارستان استقلالها عقب تفكك الاتحاد السوفيتي سنة 1992 - تريد أن تحتفل بالمدينة باعتبارها مدينة ذات تاريخ وبحسبانها رمزاً للهوية التترية ذات الأصول الضاربة في الحضارة؛ ولذلك تقدمت إلى هيئة اليونسكو بطلب إليها تنظيم احتفالية للمدينة، لكن الهيئة بينت أنها لا تنظم مثل هذه الاحتفاليات إلا للمدن التي مضى على تأسيسها ألف عام، ولا بد أن يتوافر من الشواهد والأدلة ما يكفي للتحقق من صحة هذا الشرط.

ومن ثم قررت إدارة مدينة قازان دعوة فريق من أساتذة الجامعات المصريين للبحث فى تاريخ المدينة، ووجهت الدعوة إلىّ أنا وعدد من زملائى لإجراء هذا البحث، وقد حمل هذه الدعوة إلينا الرسول الذى أتى فى ربيع سنة 1997م موفداً من جانب عمدة قازان.

كان علينا أن نقوم بمراجعة المكتبات للبحث عن مصادر تتناول الموضوع؛ لقد اعتقدنا منذ أول وهلة أن المكتبات المصرية توفر قاعدة للمعلومات لا يمكن أن تتوافر لدى غيرها وبخاصة فى تاريخ البلغار، وهو التاريخ الذى يجب البحث عنه فى مراجع عربية وفارسية وتركية، وما دفعنا إلى هذا الاعتقاد هو:

أولاً: أن تاريخ البلغار وتحولها إلى الإسلام قد حدث فى القرن العاشر الميلادى، حين كانت أوروبا تعاني من عصر الظلام، ولم تكن مرحلة التأليف التاريخى والجغرافى قد بدأت بالفعل فى تلك الفترة. ولذلك فإن تاريخ هذه المنطقة ينبغى أن ينهض على مصادر كانت تعطى عناية بالغة بهذا النوع من المعرفة التاريخية والجغرافية، ألا وهى المصادر العربية، ثم الفارسية ثم التركية.

ثانياً: أن معظم المصادر التى تناولت هذا الموضوع وكانت موجودة فى آسيا الوسطى والقوقاز وحوض نهر الفولجا قد تعرضت للدمار، سواء كانت عربية أو فارسية.

ثالثاً: تشتمل المكتبات المصرية على معلومات نادرة ومتناثرة فى ثنايا الكتب والمخطوطات عن عصر المماليك، الذين كان لهم دور كبير فى عقد صلات قوية بالبلاد الشمالية.

رابعاً: عناية مصر بنشر كتب التراث التاريخى التى لا تخلو أى منها من إشارة قريبة أو بعيدة تقيد فى بناء تصور أكثر اكتمالاً لتاريخ تلك المنطقة.

وكان من المكتبات التى رجعنا إلى مجموعتها:

- 1- دار الكتب المصرية.
- 2- دار الوثائق المصرية.
- 3- مكتبة جامعة القاهرة المركزية.
- 4- مكتبة الجامع الأزهر (قسم الفهارس).
- 5- معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.
- 6- دير الآباء الدومنيكان بالقاهرة.

وكان الاهتمام منصباً على المخطوطات والوثائق بالدرجة الأولى. وفي الوقت الذى لاحظنا فيه كثرة المظان فى المخطوطات، لم تسعفنا الوثائق القليلة النادرة الموجودة فى دار الوثائق بشيء فى الموضوع.

أما الكتب المطبوعة، فلقد طالعنا بعضها فى مكتبة كلية الآداب بجامعة عين شمس، ودار الكتب المصرية، ومكتبة الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة.

وقد شارك فى البحث فى أول الأمر فريق يتكون منى وكل من المرحوم الأستاذ نصر الله مبشر الطرازى (الذى توفى إلى رحمة الله تعالى عام 2002 م) والأستاذ الدكتور أحمد الخولى والسيد الدكتور عادل عبد المنعم سويلم من أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة.

وفى شهر يونيه من العام نفسه (1997م) اجتمع بنا عمدة قازان خلال زيارته للقاهرة، ووجه الدعوة إلينا لزيارة تترستان ومشاهدة المواقع على الطبيعة، وقمنا بالزيارة فى شهر يوليو من العام نفسه، وقد أفادتنا هذه الزيارة فى إعداد تقرير مبدئى عن تاريخ قازان.

وقد عقدت إدارة مدينة قازان سلسلة من المؤتمرات الدولية حول تاريخ المنطقة بلغت ثلاثة المؤتمرات على مدى السنوات الثلاث 98، 1999، شاركت أنا وزميلي الدكتور عادل سويلم فيها جميعاً، وتقديمنا فيها بأبحاث فى الموضوع كانت نتائجها حاسمة فى تحديد تاريخ نشأة مدينة قازان. إذ تيسر لنا - اعتماداً على المصادر العربية والفارسية - تحديد تلك النشأة بالقرن العاشر الميلادى فى حدود منتصف القرن المذكور، وأن المدينة كانت فى مبدأ أمرها حصناً أو ضاحية عسكرية أقيمت على ربوة عالية مشرفة على نهر الإثل (القولجا) لصد الهجمات التى يشنها غزاة الشمال، من الروس خاصة، على عاصمة بلاد البلغار، والتى تقع على بعد 120 كيلومتراً إلى الجنوب من قازان، ولا تزال آثارها باقية حتى الآن.

وسوف أقدم فيما يلى عرضاً مختصراً للورقة التى ألقيتها فى المؤتمر الثالث الذى عقد فى قازان فى الفترة من 31 مايو إلى 4 يونيه سنة 1999م باللغة الإنجليزية، والتى كانت النتائج التى توصلت إليها من الأسباب التى دعت المشاركين فى المؤتمر والذى حضرته وفود من: النمسا، وأذربيجان، والمجر، وأوكرانيا، وفرنسا، وجمهورية التشيك، والسويد، والنرويج، فضلاً عن وفود من مختلف الدول فى الإتحاد الروسى - دعت هؤلاء المشاركين إلى إصدار قرار من المؤتمر ينص على أن كل الأبحاث والآثار والحفريات التى أجريت فى مدينة قازان تدل على أن المدينة قد أنشئت منذ أواخر القرن العاشر وحتى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، الأمر الذى يؤهلها للاحتفال بتاريخها الألفى منذ أوائل الألفية الثالثة.

وقد تحدد عام 2005م، وبعد موافقة هيئة اليونسكو، كعام للاحتفال بمرور أكثر من ألف عام على إنشاء "قازان" وتم الاحتفال بهذه المناسبة في شهر مايو من العام المذكور.

تشتمل الرسالة التي كتبها "أحمد بن فضلان" - أحد أفراد البعثة التي بعث بها الخليفة المقتدر يصف فيها رحلته إلى بلاد البلغار - على مجموعة من المعلومات التي يمكن أن تعيننا على اقتراح بعض الفروض المتعلقة بتاريخ دولة البلغار وإنشاء مدينة قازان، وسوف أقوم بعرض هذه الفروض، مستعيناً في الأساس بعدد من المصادر العربية والفارسية:

اشتملت السفارة التي أرسلها الخليفة المقتدر إلى البلغار على ثلاثة من كبار الشخصيات في دولة الخلافة، بخلاف أحمد بن فضلان وهم: سوسن الرسى، وتكين التركي، وبارس الصقلابي.

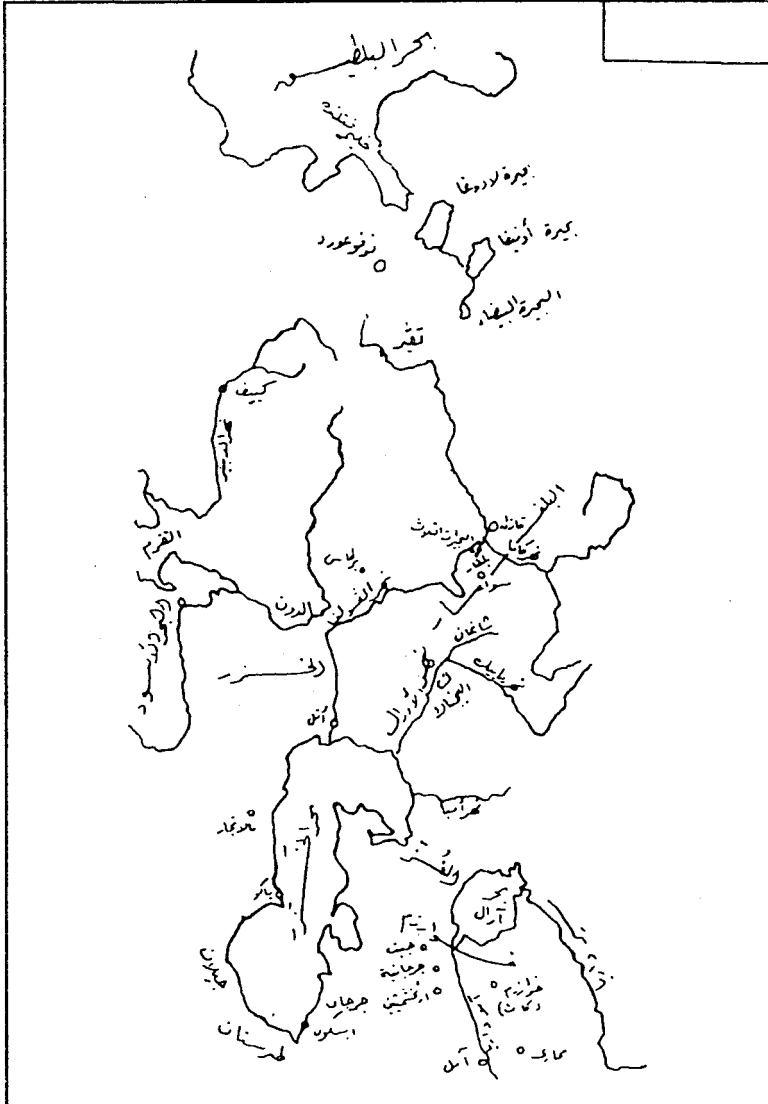
كان الخليفة المقتدر يتبع نفس السياسة التي اتبعها الخلفاء السابقون عليه منذ نحو قرن من الزمان، فيعتمد اعتماداً كلياً على الأتراك والصقالبة في الشؤون العسكرية والأمنية، حتى كان في داره أحد عشر ألف خادم من الصقالبة والسودان، منهم أربعة آلاف من الصقالبة⁽²⁾ يستقدمهم جميعاً نذير أو (نظير)⁽³⁾ الحرمي، الذي كان مسئولاً عن إدارة شؤون الحرم في دار الخلافة منذ سنة 298⁽⁴⁾، ويبدو أنه كان من البلغار أو كان على علاقة خاصة بملكها، لأنه - كما يقول ابن فضلان - تلقى من الملك رسالة شخصية يطلب فيها إرسال بعض الأدوية إليه. كما أن نذيراً هو الذي سلم رسالة الملك إلى الخليفة المقتدر في بغداد.

كان أهم ما يجمع بين هؤلاء الثلاثة من صفات هي أنهم كانوا من أهل هذه المنطقة، أو على الأقل لهم صلة مباشرة بها، كما كانوا يعملون كخدم أو كغلمان في قصر الخليفة يأتمرون بأمر تلك الشخصية المهمة في القصر: "نذير الحرمي" المسئول عن إدارة شؤون القصر والمحافظة على الأمن الشخصي للخليفة، وهو ما يسمى "بالحرم" جمع حرمة، وهو ما لا يحل انتهاكه أو الاعتداء عليه.

لم يكن يتولى هذا المنصب الخطير - فيما يبدو - إلا الصقالبة الذين كان دورهم كبيراً جداً في دار الخلافة كما ذكرنا. يقول أحد المؤرخين وهو يشير إلى صغر سن الخليفة المقتدر حين تولى الخلافة في سنة 295 هـ (907 م) " فغلب على الدولة الحرم والخدم"⁽⁵⁾.

والواقع أننا إذا نظرنا إلى الشخصيات ذات التأثير في مصير الخليفة بل في مصير الخلافة العباسية كلها في ذلك الوقت لوجدنا معظمهم من خدم الخليفة وغلمانه، فقد كان قائد الجيش الرئيسي هو مؤنس الخادم، وحاكم مصر هو تكين

الخرزى، وحاكم شمال العراق بارس الكبير ... إلخ وهؤلاء جميعاً وغيرهم كان الخليفة هو الذى عينهم بنفسه.



مخطط الأماكن التى وردت فى رحلة ابن فضلان
كما رسمها الأستاذ كاتار فى الترجمة الفرنسية " من بخارى إلى بلغار

تولى نذير هذا المنصب الخطير منذ سنة 298 هـ (910م)، ويبدو أن نفوذه فى دار الخلافة قد ظل يتزايد منذ ذلك الوقت حتى تأكد بشكل ملحوظ جعل ملك البلغار (فى سنة 921) يكلف رسوله إلى الخليفة بأن يكون "نذير" هو الشخص الذى يتولى بنفسه عرض رسالته على الخليفة، فضلاً عن رسالة أخرى شخصية خص بها "نذير" يطلب منه فيها بعض الأدوات كما أسلفنا.

وكان لنذير دور بالغ الأهمية فى عرض رسالة ملك البلغار على الخليفة ثم فى تكوين الوفد، وقد أشار إلى هذا الدور أمير خوارزم الذى أعرب عن احتجاجه لأن أمر السفارة كان خدعة خدع بها الخليفة من جانب هؤلاء الخدم، وبخاصة نذير، الذى كان له تأثير واضح على المقتدر، وأن مهمة الاتصال بملك البلغار كان أحق بها أمير السامانيين فى بخارى، لا الخليفة المقتدر نفسه، الذى لم يكن ينبغى أن يشغل نفسه بمثل هذه القضايا المتعلقة ببلدان بعيدة، وإنما كان على الخليفة أن يكلف أحد ولاته القريبين من تلك البلدان بحلها؛ فهم الأقدر على ذلك بحكم قربهم منها واطلاعتهم على أحوالها: وإلا فإن الخليفة سيعرض نفسه ويعرض مكانته لتلاعب الخدم فى قصره لتحقيق مآربهم الشخصية. كانت هذه هى نظرة الأمير السامانى - أمير خوارزم - للسفارة التى بعث بها الخليفة المقتدر إلى ملك البلغار دون استشارة الأمير.

هناك دليل آخر على مكانة نذير ودوره المهم فى هذه السفارة، هو أنه أرسل رسالة من جانبه حملتها البعثة معها إلى البلغار، قرأها أحمد بن فضلان على الملك - بصورة رسمية ومعلنة أمام الحاضرين - بعد رسالة الخليفة، ثم رسالة الوزير.

لم يكن أحمد بن فضلان هو رسول الخليفة إلى ملك البلغار، كما قد يتبادر للذهن، بل كان الرسول هو "سوسن الرسى" خادم نذير، مما يشير إلى أن الطابع الغالب للسفارة لم يكن طابعاً دينياً بقدر ما كان طابعاً سياسياً وعسكرياً، وإلا لكان رجل الدين - أحمد بن فضلان - هو الذى سُمى بأنه رسول الخليفة.

علينا الآن أن نحاول التعرف على كل واحد من هؤلاء الموفدين الثلاثة والمهمة الموكلة إليه.

أما سوسن الرسى فكان قد أكد إخلاصه للخليفة المقتدر منذ نحو ثلاثة عشرة سنة حين تعرض الخليفة لمؤامرة أبعدته عن العرش لمدة يوم واحد فى سنة 296 هـ، وقد أمضى تلك المدة كلها فى دار الخلافة فيما يبدو معاوناً لنذير وخادماً له.

وواضح أن سوسن ينتمى فى أصوله إلى حوض نهر الفولجا، فهو منسوب إلى الرس، وهو نهر إتل (فولجا) عند الجغرافيين العرب القدماء⁽⁶⁾.

وصف ابن فضلان (ص 116) سوسن بالرسول، كما وصف كلا من تكين وبارس بالغلام.

أما تكين فهو تركي الأصل تحدث عنه أمير خوارزم في لقاءه مع وفد الخليفة، فذكر أنه كان في أول مرة تاجراً يبيع الحديد، ثم توسع في تجارته حتى صار ماهراً فيها وبخاصة في بلاد البلغار، وكان على صلة وثيقة بنذير الحرمي فزين إليه عرض رسالة الملك على المقتدر.

ولعل أمير خوارزم يشير إلى أن لتكين مصلحة خاصة في الأمر كله، فهو يسعى إلى توريط مؤسسة الخلافة في أمر الدفاع عن بلاد البلغار ضد أعدائها، فتوسع تجارته في بيع الحديد لدخوله في صناعة السلاح وبناء الدفاعات العسكرية والحصون.

ويبدو أن هذا قد حدث بالفعل لا على يد الخلافة العباسية بل على يد ملك البلغار الذي تكفل باتخاذ التدابير الحربية وتوفير الأسلحة اللازمة للدفاع عن بلاده. وقد سجلت المصادر العربية والفارسية مدى التقدم الذي حققته صناعة السلاح في بلاد البلغار في فترة لا تزيد عن قرن من الزمان، فهي هو ذا أبو الريحان البيروني⁽⁷⁾ يتحدث عن الطرق المبتكرة في صناعة السيوف عند الصقالبة، وعن الأنواع التي تصنع منها سيوفهم، ويشير المؤرخ الفارسي "الكرديزي"⁽⁸⁾ إلى ما كان يتوفر للبلغار من سلاح كثير لكثرة حروبهم وغزواتهم.

ولا تمدنا المصادر العربية أو الفارسية بمعلومات أخرى عن "تكين" ولا عن "بارس الصقلابي" الذي يبدو من اسمه أنه من أهل المنطقة وأنه من جماعة الخدم ذات النفوذ في قصر الخليفة.

ومن حقنا أن نتساءل عن طبيعة الدور الذي كان مكلفاً به - كما أسلفنا - "بارس الصقلابي" لقد كان لكل واحد من أعضاء الوفد دور محدد، "فسوسن الرسي" هو رسول الخليفة الرسمي، و"أحمد بن فضلان" المسئول عن قراءة الرسائل وتسليم الهدايا والإشراف على الفقهاء والمعلمين، و"تكين" كان حلقة الوصل بين ملك البلغار ومؤسسة الخلافة وربما كان مسؤولاً عن توفير المواد الخام اللازمة لصناعة السلاح، ولا نجد إشارة في رسالة ابن فضلان إلى من كان مهتماً بأمر بناء "الحصن"، الذي كان واحداً من أهداف السفارة إلى ملك البلغار وربما كان "بارس" بحكم وظيفته في دار الخلافة كخادم أو "غلام" متخصصاً في الشؤون العسكرية وشئون الأمن هو الذي كان مسئولاً عن هذا الجانب.

وإذا رجعنا إلى رسالة ابن فضلان نجده يشير إلى أن الملك طلب من الخليفة المقتدر أن يرسل بعثة من قبله تفقّحه في الدين وتبني له مسجداً، وتتصب له منبراً

يقسم عليه الدعوة إلى الخليفة - في جميع مملكته - وسأله إلى جانب ذلك أن يبني له حصناً يتحصن فيه من الملوك المخالفين له، ويضيف ابن فضلان قوله: إن الملك "أجيب إلى ما سأل من ذلك"، أي أن كل ما طلبه الملك قد تحقق. واشتمل الوفد على فقهاء ومعلمين وخبراء عسكريين.

ولقد تحدثت مهمة كل واحد من أعضاء الوفد من خلال القراءة المتأنية لرسالة ابن فضلان إلا "بارس الصقلابي"، فقلعه هو الذي كان مختصاً بموضوع الحصن.

ومهما يكن من أمر، فقد كان من أهم أهداف ملك البلغار من الاتصال بالخلافة العباسية دعم نفوذه السياسي في المنطقة ودرء المخاطر العسكرية التي تهدد دولته، لكنه كان يعلم أن الخليفة لن يستطيع أن يعينه بمدد عسكري وأن جيوش الخليفة لن تستطيع الوصول إلى بلده "بسبب بعد المسافة، والبلدان الشاسعة التي بينه وبين الخليفة" كما صرح بنفسه لابن فضلان. ولذلك فإنه وجد أن هذا النفوذ السياسي لن تكون له قيمة إلا إذا كان مدعوماً بقوة دفاعية مناسبة، ومن ثم فقد أرسل إلى الخليفة "يسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له".

وقرر الخليفة أن يرسل بصحبة الوفد أربعة آلاف دينار للاستعانة بها على بناء الحصن، على أن يؤخذ المال من نتاج إحدى الضياع (المزارع) في خوارزم، ولكن الوفد وصل إلى بلاد البلغار دون أن يصحب معه هذا المبلغ بسبب مكيدة دبرها خصوم الوزير، فلم يصل إلى يد ملك البلغار منه شيء، مما جعل الملك يوجه اللوم أكثر من مرة لابن فضلان. ولكن الملك يعلن في النهاية أنه إنما طلب المال من الخليفة على سبيل البركة وأنه يستطيع أن يبني حصناً من أمواله من فضة وذهب.

وهذا يعني مدى إصرار الملك على بناء الحصن حتى ولو لم يشارك الخليفة في بنائه، ولقد ظل بناء الحصن هو الهاجس الذي شغل الملك طوال الوقت، وذات مرة وجه اللوم لابن فضلان قائلاً: "إنما جئتم بأجمعكم، وأنفق عليكم مولاى ما أنفق لحمل هذا المال إلى، حتى أبني به حصناً أتحصن به من اليهود الذين استبعدوني" (رسالة ابن فضلان، ص 119).

وواضح من عبارة الملك أنه يركز على العاطفة الدينية في بناء الحصن، لأنه سيمنعه من اليهود الخزر، الذين كانت دولتهم تتاخم الحدود الجنوبية لدولة البلغار، وظلوا منذ تحولهم إلى اليهودية في عهد الخليفة العباسي المأمون إبان القرن الثامن الميلادي وقبل نحو مائة عام من بعثة الخليفة المقتدر إلى ملك البلغار - ظلوا يشكلون تهديداً مستمراً لجيرانهم ويمارسون أعمالاً قهرية ضدهم، فيفرضون عليهم رسوماً وضرائب يدفعونها وهم صاغرون وإلا تعرضوا للبطش والتكيد والأسر أو حاق ببلادهم الخراب والدمار.

لقد سجل أحمد ابن فضلان في رسالته أن قبائل الترك التي كانت تقطن إلى الشرق من دولة البلغار التي كانت تعيش في خوف دائم من الخزر وأن ملك الخزر يحتجز العديد من أسرارهم عنده.

أما ملك البلغار فقد كان عليه - كما يقول أحمد ابن فضلان - "ضريبة يؤديها إلى ملك الخزر، بل إن ابن ملك الصقالبة (يعني البلغار) رهينة عند ملك الخزر، وقد كان اتصل بملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة جمال فوجه يخطبها، فاحتج عليه ورده، فبعث وأخذ غضباً، وهو يهودي، وهي مسلمة، فماتت عنده، فوجه يطلب بنتاً له أخرى. فساعة اتصل ذلك بملك الصقالبة بادر فزوجها لملك اسكل"، وهو من تحت يده، خيفة أن يختصبه إياها كما فعل بأختها. وإنما دعا ملك الصقالبة أن يكاتب السلطان (يعني الخليفة المقتدر) ويساله أن يبني له حصناً خوفاً من ملك الخزر "ولم يكن هذا الأمر يقتصر على ملك البلغار وحده، بل كان ملك الخزر "يأخذ من بنات الملوك الذين يحاذونه ما يشتهي طوعاً أو كرهاً ... " كما يقول ابن فضلان، فهي إذن عادته مع كل جيرانه لا مع ملك البلغار وحده.

لكن الملاحظ أن الملك يتوسع في الهدف من بناء الحصن، فيتحدث إلى ابن فضلان في موضع آخر ويصف نفسه وشعبه بأنهم "أقوام ضعفي محاصرون مستبعدون" (ص 121) لقد استخدم الملك في هذا الموضع الأخير كلمة "الحصار" أي أنه معرض للهجوم من أكثر من جهة، لا من جهة الخزر وحدها في الجنوب.

علينا الآن أن ننمعن في كلمة "الحصن" التي جاءت في رسالة ملك البلغار إلى الخليفة المقتدر؛ قد يتبادر إلى الذهن من أول وهلة أنها تعني "القلعة"، وهي التي تبني للدفاع عن العاصمة أو عن إحدى المدن الاستراتيجية، وتختلف عن الحصن أو التحصينات الدفاعية التي يتم بناؤها في المواضع التي يتوقع منها الهجوم، ولا شك أن ملك البلغار كان يريد بالحصن المعنى الثاني، وهو بناء سلسلة من الدفاعات هنا وهناك، وإلا لكان الملك قد اكتفى ببناء قلعة واحدة خارج العاصمة. ولا يرد في المصادر ذكر لأية قلعة بنيت بالقرب من مدينة البلغار العاصمة آنذاك وإنما كانت كل المقومات الدفاعية لها عبارة عن سور من الخشب، وبرج عال يمكن من خلاله استكشاف أية تحركات عسكرية على بعد كبير، ولا زلنا نرى آثار السور الخشبي والبرج إلى الآن في الأنقاض التي تخلفت عن مدينة البلغار.

وهذا يعني أن التحصينات قد بنيت في أماكن استراتيجية بعيدة عن العاصمة التي لا يتميز موقعها بأى مركز استراتيجي، بل هي منطقة مكشوفة يسهل على أى مهاجم أن يغزوها في ساعات قليلة. ومن هنا فلا بد أن تبني هذه التحصينات في أماكن منيعة تتحكم في المعابر التي تعبر منها القوات المهاجمة، وكان من أهم هذه المعابر نهر الفولجا.

والآن علينا أن نتساءل أين يمكن أن تبنى هذه التحصينات الدفاعية؟ لابد أن بعضها بنى إلى جنوب العاصمة لصد أى هجوم محتمل من جانب يهود الخزر. ولكن لا يمكن أن يترك الشمال مكشوفاً دون دفاع، وبخاصة بعد أن برز الروس كقوة عسكرية كبيرة وتوالت هجماتهم البحرية بسفن مشحونة بالمقاتلين عن طريق نهر الفولجا.

وقد سجلت المصادر الفارسية أولى الهجمات البحرية الخطيرة للروس فى سنة 907 م⁽⁹⁾، كما أشار المؤرخ الروسى "كارامازين" إلى حملة بحرية أخرى فى سنة 912 م. كما أشار كل من ابن الأثير والمسعودى إلى حملة واسعة النطاق كان البلغار طرفاً فيها ضد الروس فى سنة 934 م. كانت هذه الحملات تتوغل فى نهري الفولجا والكر وتستمر على بعض المدن فى طبرستان⁽¹⁰⁾، وآذربيجان.

ولذلك كان مقتضى الحزم والاحتياط الأمنى بناء تحصينات دفاعية من جهة الشمال لوقف أى هجوم محتمل من قبل الروس.

والملاحظ أن المصادر العربية والفارسية لا تسجل أية حملات حربية جديدة بعد سنة 934 م على بحر الخزر، بل أشارت هذه المصادر إلى أن تحسناً قد طرأ فى دولة البلغار على الموقف العسكرى والسياسى اعتباراً من سنة 944م.

فقد أشار المؤرخ الجغرافى العربى المسعودى فى كتابه "التنبية والإشراف" إلى التطور الذى حدث فى تلك السنة حين أصبحت لدولة البلغار الغلبة على ما حولها. ويبدو أن التحصينات الدفاعية كانت قد استكملت حينذاك.

كما سجل صاحب كتاب "حدود العالم" المؤلف بالفارسية فى سنة 985 م الاختلاف الذى طرأ على دولة البلغار فى ذلك الوقت قائلاً بأن البلغار يلحقون بأعدائهم الهزيمة كلما حاربوهم. ويصف مؤلف الكتاب بلاد البلغار بكثرة سكانها الذين يعيشون فى رغد من العيش⁽¹¹⁾. وفى سنة 1053م حين ألف المؤرخ الفارسى الكرديزى كتابه "زين الأخبار" أدهشته الكمية الهائلة التى يمتلكها البلغار من السلاح والتقدم التجارى الكبير الذى تحقق بينهم وبين الخزر والروس، مؤكداً على أن السبب فى هذا النشاط التجارى الكبير إنما يرجع إلى شعور البلغار بالقوة والمنعة، ولعل ذلك راجع إلى تأمينهم لحدود بلادهم ودعم تحصيناتهم الدفاعية.

ومن أسف أن أهم مصدر عني بأمر هذه التحصينات قد ضاع، وأعنى به كتاب "تاريخ بلغار" للقاضى أبى محمد النعمان البلغارى وكان من أصحاب أمام الحرمين أبى المعالى الجوينى المتوفى سنة 487 هـ / (1085م)، أى أن الكتاب ألف بعد نحو قرن ونصف من سفارة المقتدر إلى ملك البلغار، لكننا لحسن الحظ نجد مقتطفات من هذا الكتاب نقلها المؤرخ زكريا القزوينى فى كتابه "آثار البلاد

وأخبار العباد"، فذكر اثنين من الحصون البلغارية المنيعة أولهما حصن شوشيط والثاني حصناً قريباً منه هو "واطر-بورونة".

ويعصف حصن شوشيط بأن "فيه عين ماء ملح، ولا ملح بتلك البلاد أصلاً"، وقد فسر الجغرافيون العرب عدم وجود الملح بها لأنها بعيدة عن الشمس⁽¹²⁾، فإذا احتاجوا إلى الملح أخذوا من ماء هذا العين، وملأوا منه القدور وتركوها في فرن من حجارة، وأوقدوا تحتها ناراً عظيمة "فيتبخر الماء ويبقى الملح الجامد الأبيض، وبهذه الطريقة يعمل الملح الأبيض في جميع بلاد الصقالبة".

وإذا تأملنا اسم هذا الحصن "شوشيط" نجد أنه قريباً من اسم "جاوشيز" الذي ذكره ابن فضلان، فالجيم لاشك أنها فارسية ثلاثية، والزاي يمكن أن تكون تصحيفاً للهاء، فتكون جاوشيت، لا جاوشيز، على النحو التالي:

يرد اسم هذا الحصن عند ابن فضلان بالرسم التالي: جاوشيز، والأرجح أن تكون الجيم فارسية: ونطقها تش "ch" فتكون عندئذ: جاوشيز، ونطقها بالعربية شاوشيز. ولعل الزاي كانت في الأصل ت، فصحفتها الناسخ لقربها من الزاي فتصبح: جاوشيت، وتنطق بالعربية شاوشيت أو شاوشيط أو شوشيط، وهو نفس الاسم الذي ورد عند القزويني: شوشيط). وهي منطقة قريبة من قازان الحالية عاصمة تاتارستان حسبما ذكر لي الأستاذ "راسخ ساجدوف" نائب رئيس لجنة العلاقات الاقتصادية الأجنبية بمجلس مدينة قازان في الثلاثين من مايو سنة 1999م بمدينة قازان.

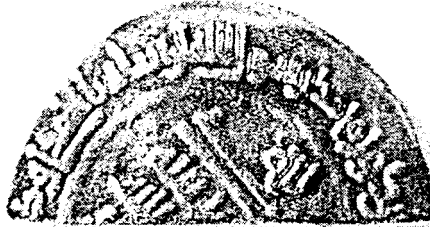
وكان ابن فضلان قد ذكر مايفيد أن ملك البلغار ارتحل إلى ناحية الشمال حيث أقام في منطقة البحيرات الثلاث⁽¹³⁾ فانضم إليه أعضاء وفد الخليفة ومن بينهم بارس الصقلابي الذي رجحنا أن يكون هو المسئول عن بناء الحصون، ثم تحرك الملك بعد ذلك إلى نهر "جاوشيز"، ووصف ابن فضلان النهر بأنه قليل العرض، وعمقه ليس كبيراً وبالقرب منه واد واسع.

وحصن شاوشيط الذي أشار إليه القاضي البلغاري في تاريخه كان يشتمل على عين ماء مالحة وتلك البلاد - كما يشير القزويني - لأملاح بها أصلاً، فإذا احتاجوا إلى ملح أخذوا من ماء هذه العين، وملأوا منه القدور في فرن من حجارة وأوقدوا تحتها ناراً عظيمة..⁽¹⁴⁾

لكن الأمر الذي يلفت النظر هو أمر القدور الكبار التي كان يغلى فيها الماء المالح لاستخراج الملح. والقدر بالعربية هو قازان بالتركية، فعمل هناك صلة بين مدينة قازان وجاوشيط، وأن يكون "القدر" قد غلب على الاسم الأصلي فأصبح "قازان". ومما يرجح هذا الفرض أن قازان (أو شاوشسط القديمة) قد توفّر لها من

المقومات ما يؤهلها لكي تكون واحداً من أهم الحصون المدافعة عن العاصمة "بلغار"، فقد بنيت من الشمال منها على هضبة عالية تطل مباشرة على نهر الفولجا وتهيمن على حركة السفن فيه. وقد أكدت الحفريات التي أجراها علماء للآثار من تترستان وروسيا في السنوات الأخيرة وجود آثار لسور القلعة على أعماق في الأرض، كما وجد بين العملات النقدية المكتشفة نصف درهم يحمل اسم أحد ملوك السامانيين الذين كانوا يسيطرون على بلاد الفرس في القرن العاشر الميلادي.

وقد قامت أنا وزميلي الدكتور عادل عبد المنعم سويلم بإجراء بحث مستقل مشترك لتحديد اسم هذا الملك الساماني والموضع والتاريخ اللذين تم فيهما سك هذه العملة، واستعنا في البحث بمجموعة العملات السامانية القيمة المحفوظة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة، والتي تبين أنها تشتمل على نظائر للنصف الدرهم الذي تم العثور عليه في حفائر قازان، وعرضت نتائج البحث موقعة بالصور والشرائح الملونة في المؤتمر الدولي الذي عقد في قازان سنة 1998 مما كان له أكثر الأثر كدليل مادي حاسم يضاف إلى الأدلة التي تؤكد ما تتمتع به المدينة من تاريخ عريق يرجع بنشأتها إلى فترة الساميين الذين عاشوا في شرق إيران وآسيا الوسطى قبل ألف عام. (انظر الصورة)



صورة نصف درهم عثر عليه في حفريات "قازان" وهو من عهد الدولة السامية في إيران
في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

لنرجع الآن إلى ما كنا فيه ونحاول التعرف على الحصن الثانى وهو حصن "واطر - بورونه". لقد وصفه القاضى البلغارى بأنه حصن منيع وقريب من جاوشيت، أى أنه بنى جهة الشمال أيضاً. مما يدل على أن سلسلة من الحصون قد بنيت فى هذا الاتجاه، أو على الأقل تم التخطيط لبنائها منذ عهد سفارة الخليفة المقتدر العباسى إلى البلغار فى القرن العاشر الميلادى.

ويقول المؤرخ الروسى "كارامزين" إن أمير "فيلادير" حين أرغم أهل "راصتوف" على التنصر سنة 988م هرب المسلمون من أهلها واستوطنوا الموضع الذى فيه قازان الآن. ويضيف كارامزين "أن أهل قازان الآن من أصل هؤلاء الفارين". ولاشك أن الحصن الذى سبق بناؤه فى المنطقة كان سبباً فى جذب هؤلاء الأقوام التى فرت من الدولة الروسية الوليدة فى "كييف" فأسسوا منطقة سكانية بجوار الحصن، وأخذت هذه المنطقة تتوسع بالتدريج، حتى أصبحت لها مقومات رشحتها لتكون بديلاً عن العاصمة القديمة: مدينة البلغار.

بعض مصادر هذا البحث

- أحمد بن فضلان: رسالة ابن فضلان، تحقيق سامى الدهان، دمشق 1959م.
- المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبع دار المعرفة، بيروت.
- المسعودى: التنبيه والإشراف، طبع بيروت.
- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، طبع تورنبرج، لندن 1891م.
- الرمزى: تليفق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قازان وبلغار، طبع أورنبوغ (تتارستان).
- الغرناطى: (أبة عبد الله): تحفة الألباب، مخطوط بدار الكتب، رقم 45845.
- أبو حامد الأندلسى: عجائب البلدان، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، 36 جغرافياً.
- زكريا القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، طبع بيروت.
- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، طبع دار الكتب المصرية.
- مسكويه: تجارب الأمم، الجزء الخامس، طبع مصر.
- ابن الطقطقى: الفخرى فى الآداب السلطانية، طبع دار المعارف بمصر.
- الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مخطوط بدار الكتب المصرية.
- النويرى: نهاية الأرب ج 23، طبع دار الكتب المصرية.
- هلال الصابى: رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، بغداد 1964م.
- اسحاق بن الحسين: آكام المرجان فى ذكر البلدان، معهد المخطوطات العربية، 83 جغرافياً.
- عبد الحى الكردى: زين الأخبار، تحقيق عبد الحى حبيبى، طهران 1347 هـ.ش.
- أبو الريحان البيرونى: الجماهر فى الجواهر، تحقيق يوسف الهادى، طهران 1347 هـ.ش.
- ترجمة ماريوس كانار الفرنسية لابن فضلان، الجزائر 1958م.
- محمد ابن اسفنديار: تاريخ طبرستان، تحقيق عباس إقبال، طهران 1320 هـ.ش.

الهوامش:

- (1) انظر: رشيد بولتاتشيف، جمهورية تتارستان، طبع مصر، سنة 2000م، ص 2-3 والدكتورة هويدا محمد فهمي، الأقليات المسلمة والصراعات العرقية في كومولث الدول المستقلة (الاتحاد السوفيتي)، مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة، سنة 2000، ص 16 وما بعدها، وانظر أيضاً مادة Tater في دائرة المعارف الأمريكية.
 - (2) انظر النجوم الزاهرة، ص 173 (طبعة دار الكتب) والفخرى لابن الطقطقي، ص 233، (طبعة دار المعارف)، والصابي، رسوم دار الخلافة، ص 8.
 - (3) النجوم، 3 : 175.
 - (4) أيضاً.
 - (5) مسكويه، تجارب الأمم، 5 : 13 (طبع مصر).
 - (6) انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق - مخطوطة - دار الكتب المصرية.
 - (7) البيروني: الجماهر في صناعة الجواهر، ص 404، 406.
 - (8) الكرديزي: زين الأخبار، ص 274.
 - (9) تاريخ طبرستان: لابن اسفنديار، تصحيح عباس إقبال، طهران، 1 : 266.
 - وانظر أيضاً: خريدة العجائب، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم 185، بلدان تيمور، ق 10.
 - (10) تاريخ طبرستان: لابن اسفنديار، 1 : 266.
 - (11) حدود العالم، فصلة الترجمة ليوسف الهادي، القاهرة 1999م، 144 - 145
 - (12) خريدة العجائب، ق 95.
 - (13) زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، طبع دار صادر، بيروت، ص 604.
- وقد ظل حصن شوشيط معروفاً بالاسم نفسه حتى القرن الثالث عشر الميلادي، راجع عبد الرشيد بن صالح الياقوتي، تلخيص الآثار، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم 165 بلدان تيمور.